لماذا صرت طبيبا

فى هذا الكتاب خمس وأربعون طبيبا وطبيبه يحكى كل منهم تجربته الخاصة وسر اختياره مهنة الطب... من هؤلاء الأطباء «سومرست موم» و«رونالدروس» - مصطفى الديوانى- سعيد عبده- يوسف حتى- محمد أحمد نصر- ناجى يسى الذى اشترك فى تحرير الكتاب مع «فابريكانت».

أبدأ بالدكتور سومرست موم لأنه بدأ طبيبا وانتهى كاتبا وأنا لا أخفى إنحيازى للكُتاب وإن كانت المعرفة لاتتفاضل... ولكن لعله وفاء الانتماء.

يقول سومرست موم أنه عاش فى وقت كان معظم الناس يتمتعون بعيشه هنية وسلام تام ورواج واسع... ويمضى بأسلوبه الساخر يصور تلك الحقبة من حياته يقول قامت طائفة من الكتاب -وقتئذ- تتغنى بالمزايا الخلقية للألم فيذيعون أنه جد نافع للإنسان وأنه يزيد فى حنان المرء ويرهف إحساسه وأنه يفتح أمام الروح سبلا للجمال... ويدعون أيضا أن الألم يقوى الخلق ويطهره من الرجس الإنسانى، ويغمر بالسعادة من يسعى إليه ولايروغ منه- سؤال عابر هل يسعى إنسان إلى الألم؟ مع سومرست موم أن يسخر فى ألم ولكن من نوع آخر..

يقول سومرست موم (كان النجاح العظيم حليف كثير من الكتب التى بحثت هذا النمو، ونال مؤلفوها شهرة عظيمه وينعمون بالعيش فى منازل مريحة، يأكلون الوجبات الثلاث كل يوم ويتمتعون بصحة جيدة ولكنى سجلت فى مذكراتى، ما شاهدته من الحقائق وفعلت ذلك لامرة أو مرتين بل مرات عديدة. سجلت أن الألم لايرفع إنسانا بل يخفضه.. وسجلت بقوة أننا لانتعلم الصبر من الضراء التى تصيبنا، بل مما يحل بغيرنا... وكل هذا أكسبنى خبرة عظيمة قيمة. ولست أدرى ما إذا كانت هناك طريقة لتدريب الكاتب أفضل وأقوى من أن يمارس مهنة الطب بضع سنين. أجل قد تعلم الكثير عن الطبيعة البشرية إذا التحقت بمكتب أحد المحامين ولكن الذين تعاملهم من زائرى المكتب هم فى الجملة أناس لهم تمام السيطرة على أعصابهم، وربما كذبوا عليك كما يفعلون مع الطبيب، لكن كذبهم عليك أكثر توازنا وربما كانت حاجة المحامى إلى معرفة الحقيقة غير ملحة، وفوق ذلك فإن الأمور التى يتولاها المحامى مادية فى العادة، وعلى ذلك

فهو ينظر إلى الطبيعة البشرية من زاوية خاصة ولكن الطبيب وخاصة طبيب المستشفى، يراها عارية من كل مايسترها... وإذا حبس إنسان لسانه عن الكلام أمام الطبيب كان من السهل على الأخير، التغلب على ذلك وقلما يكون هناك سريكتم، إذ أن خوف المريض كفيل بالقضاء على تحفظه، بل ويصيب غروره بالوهن، فضلا عن أن معظم الناس يتهافتون على التحدث عن أنفسهم، ولايردهم عن ذلك إلا صمم الآخرين عن الإصغاء إليهم.

وبعد سومرست موم، طبيب آخر ساخر أيضا.. إنه الدكتور سعيد عبده... كانت ملابسات حياته تصده عن الطب ولكنه أصبح طبيبا.. كيف؟ عنده، وحده، الجواب.

(مرضت وأنا صغير بحمى معويه طويلة الأمد ورأيت الطبيب يسقينى المرو العلقم على غير طائل، فأغافل أمى وأسكبه حيث يخفى عن عين الشيطان ثم يحجبنى عن الطعام كله سبعة أسابيع لا يبيحنى منه -حتى بعد أن نقهت وتماثلت للشفاء- إلا الماء وعصير الليمون.. وأرى البطيخ فى ريعان حمرته وحلاوته يأكله إخوتى كل يوم فيسيل لعابى عليه وأبكى من أجل الحصول على قطعة منه فيمنعها الطبيب خشية الانتكاس - ولكنه كان يصل إلى البطيخ بأى سبيل-.

ويعودنى الطبيب فى اليوم التالى فيزدهيه الفخر بما صنع بى دواؤه الذى أنقذنى من الهلاك!!

لم تكن صورة الطب والطبيب فى نفسى وأنا صبى تفتن الخيال.. بيدأنى مع ذلك دخلت مدرسة الطب فى سنة ١٩٢٠ وبمحض المصادفة دخلتها فقد كانت المدرسة تقبل الخمسين الأوائل من صفوة الناجحين فى الدراسة الثانوية وكان ترتيبى الواحد والخمسين وكان ثانى الناجحين من أسرة كلها مهندسون فآثر دراسة الهندسة على دراسة الطب فاستدعتنى المدرسة لملء الفراغ..

أليست قصة طريفة ؟

وهذه قصة الدكتور جوزيف جرجر (١٨٨١-١٩٥٠).

أرسله والده فى التاسعة عشرة من عمره إلى جامعة اكسفورد فركب الباخرة قاصدا لندن عن طريق مدينة الرأس وهنا خطر له أن يتطوع فى الجيش ويخوض الحرب دفاعا عن انجلترا. ونفدت نقوده وتغيرت وجهته فانصرف عن غايته أى دراسة الطب ولكنه فى الرحلة إلى مدينة الرأس قابل الأديب الأمريكى «مارك توين» ولم يصدق أنه فى الباخرة ووجد نفسه وجها لوجه أمام كاتب قصة هكلبرىHackleberry.

(كنت أظن أنى أضعت كل فرصة لمحاولة أن أكون طبيبا اللهم إلا إذا حصلت على مال من والدى وهذا ماكنت أتحاشاه لماكنت أشعر به من خجل وعار فاقترح علىّ مارك توين أن أمارس عملا يساعدنى على دخول مدرسة الطب... وأخبرنى أن هذا سهل فى أمريكا.

وأخذت الباخرة وما إن رست فى ميناء ليفربول حتى أكتشفت انتهاء جواز سفرى فتركتها واتخذت لى مكانا فى سفينة لنقل المواشى التى عبرت بها المحيط إلى الولايات المتحدة الأمريكية).

أليست قصة طريفه أيضا ؟

ومن الطرائف قول الدكتور جوزيف جرجر أن الطبيب فى أيامه أى حتى منتصف القرن العشرين كان له سمت خاص وتقاليد معينة فالأطباء فى تلك الأيام كانوا يلبسون ملابس رسمية وكان يُعد هذا من ضرورات المهنة... وفى يوم زارهم الطبيب فوقف ومعه إخوته وقفة إجلال ثم (أحنينا رءوسنا فى احترام ومر الطبيب فى جلاله أمامنا قاصدا حجرة المريض) .

الدكتور محمد صبحى له قصة..

فى ١٩٠٠ انتهى من دراسة الثانوية وكانت مدرسة تجاور كليتى الحقوق والهندسة وكلتاهما قبلة الطلاب ومحط أنظارهم الأولى بما لخريجيها من شأن عظيم فى الدولة فمنهم الوزراء والحكام وفى ذلك مافيه من جاه وأبهة ومظاهر الحكم (على أننى لم أكن ذا فصاحة ولسن فخشيت أن أتخلف عن أقرانى فى هذا المجال. أما كلية الهندسة- وكانت تدعى حينئذ المهندسخانة- وكانت ذات مستقبل باسم ولكنى أعرضت عنها إذ خشيت من الزلل فى الحساب ولهذا حثثت ركابى إلى كلية الطب لتفوقى فى علم الأحياء وفى الكيمياء.

وقد امتحنه فيهما استاذ ألمانى وعصره عصرا.. لأنه كان يعلم ضعفه فى التعبير باللغة الإنجليزية فانعكس هذا على فكرته عنه ولكنه ذهل لصحة الأجوبه فى مادتى الأحياء والكيمياء.

ويختم الدكتور محمد صبحى حديثه بقوله:

(تحولت ساعة التخصص إلى طب العيون. إذ أن العين قد اجتذبتنى بنظرتها السحرية كما أنها أشرف حواس الإنسان وأغلاها جوهرا).

لماذا عزمت أن أكون طبيبا ؟

إنها قصة جيمس هريك.

(كنت فى سن الطفولة مولعا بالحيوان والنبات وكنت أجمع بيض الطيور والشرانق وكثيرا ما حملت إلى البيت هياكل للطيور والحيوانات الصغيرة ألتقطها من الغابات والمروج.. ولما ماتت أرنب كنت أهواها قمت بما يصح أن يسمى «الكشف على الجثة بعد الوفاه» وأثبت أن الوفاه حدثت من تأثير مخالب القطة وأسنانها ثم دفنت الجثة باحتفال لائق! ووضعت فوق القبر حجرا نقشت عليه عبارة تذكارية ولم يكن ما فعلته يثير الدهشة أو ينبئ بأنى سأكون طبيبا فإن كثيرا من الأولاد الذين أغرموا بالطبيعة كانوا يفعلون مثل ذلك بل لم تكن هناك أية علامة تدل على أنى ولدت لأن أكون طبيبا إلا أن اختيارى لنوع خاص من الدراسات فى السنين الأولى من التحاقى بالمدرسة له مغزاه فى الدلالة على اتجاهى إلى الطب حتى فى ذلك الوقت المبكر، من ذلك قيامى بدراسات واسعة فى التحاليل النوعية داخل المعمل ودراسة أولية فى الكيمياء العضوية).

وتدور الأيام حافلة بالأحداث والقرارات والأفكار ومن هذا فكرة تدريس اللغة الإنجليزية ثم تبين أنه ليس مبرزا فى الأدبيات ثم كيف يعيش على المرتب الذى كان يتقاضاه ؟ ثم كيف يتمتع بالأسفار وبحضور اجتماعات ومؤتمرات الأساتده وبالترفيه عن نفسه والتمتع بالحياة متعة صحيحة ؟

يبدو أن المعلم فى جميع العصور وجميع البلاد، مظلوم بل كان فى ذلك الوقت وفى انجلترا مهددا بالإستغناء عنه من رئيسه ولهذا نصحه مدرس قديم هو المستردودج بأن يعمل على أن يكون طبيبا كى يكون سيد نفسه لاعاملا مرتزقا فى خدمة غيره.

أقول ليتنا نعرف تراثنا.. لقد كان المدرس فى مصر القديمة يناديه الطالب: «سيدى».

ويبدو أننا توارثنا هذا الاحترام للمدرس فالطفل فى القرية المصرية يقول لشيخ الكُتاب «سيدنا».

وفى الأزهر يقول الطالب للاستاذ «مولانا».

وفى تراثنا الإسلامى يسمى الأستاذ «الباب» لأنه يفتح باب العلم... يفتح باب الجنة.

دفعنى حادث تافه إلى هذا المصير.

قصة الدكتور روبرت موريس (١٨٥٧-١٩٤٥).

وقبل أن نقف على قصته، نقف عند قوله (كان قلة من الطلبة يعمدون إلى اختيار جامعة ما من الجامعات بسبب وجود أساتذة أفذاذ بين هيئة التدريس فيها ولو كان الوضع كذلك لكان لجماعاتنا اليوم شأن آخر ولأصبحنا قادة العالم فى مسائل التربية ولما كان أجر العامل يرتفع فوق مرتب المدرس) .

أقول هذا النظام المثالى فى التدريس، الذى افتقده روبرت موريس فى جامعاتهم فى وقته، كان سائدا عندنا فى الأزهر فقد كان لكل أستاذ، عامود وله كرسى خاص يجلس عليه ويتحلق حوله الطلاب.. فإذا أراد طالب أن يتحول إلى أستاذ آخر أو مادة دراسية أخرى فله كامل الحرية.. ومن هنا... من عندنا جاء التعبير (استاذ كرسى) .

ومن مصر.. من الأزهر انتقل هذا التقليد إلى جامعات الغرب بعد هذا.

نبدأ القصة يقول روبرت موريس:

(حدث لى ذات يوم وأنا أدرس علم البيولوجيا حادث تافه وعجيب ولكن كان فيه فصل الخطاب، ذلك أن ولدا فى المدينة عضه كلب قيل إنه مصاب بداء الكلب وذكرت الجرائد المحلية أن الولد فى النزع الأخير بسبب ما أصابه من صرع... وصحبت الدكتور «لو» إلى منزل الولد فلاحظ أن الآثار التى تركتها أسنان الكلب فى ذراع الولد ليست سوى كدمات لم تخترق الجلد. وأن تمثيل أعراض هذا المرض قد يكون أحد أطوار الصرع الهستيرى.

وهنا دخلت المكتبه وراجعت كل ما كتب عن أمراض الكلب والأمراض النفسية مما له صله بالحالة التى كنا بصددها وانتهى بحثى إلى أن حالة الولد هى نوع من الهستريا الشديدة ربما يؤثر فيها العلاج بالإيحاء... إذ أن من أهم الأمور فى الهستريا الشديدة المفاجأة وإحداث الدهشة.

أخذت ألقن الولد أنه سيسترد صحته فجأه فى الساعة الخامسة تماما بعد ظهر ذلك اليوم وأنه سيبهر الجميع بشفائه. وطلبت من والديه أن لايدخل حجرته إنسان حتى أعود).

ومن الطريف أنه نسى أن يضع ساعة حائط فى الحجرة.

ولكن حدث فى الساعة الخامسة أو مايقرب منها أن أحس الولد بالوقت فقام من فراشه ونادى أمه وأخبرها أنه بخير وطلب منها العشاء.

يقول روبرت موريس: (إن الأثر الذى تركته فى نفسى- هذه الحادثة- كان عميقا إذ شعرت بأنه إذا كان فى طاقة الأطباء، أن يعرفوا شيئا كهذا وأن يؤدوا خدمات للمرضى بمثل هذه الظاهرة فقد أصبح لزاما علىّ أن أجعل دراسة الطب هدفى فى الحياة لا أتخلى عنه أمام أى إغراء يأتينى من ناحية أخرى) .

ومن الطريف أن المدينة تناقلت الحديث أنه قام بمعجزة شفاء داء الكلب (بلمس اليد) فطلب بعضهم منه أن يضع يده على مفاصله المصابه بالروماتزم !

لماذا أصبحت طبيبا ؟ أو قولوا كيف أصبحت طبيبا.

قصة الدكتور ابراهيم الشربينى.

أصبت طفلا بمرض البلهارسيا الذى يعتبره أهل الريف روتينا مُسَّلماً به، وكنت مع الأطفال أذهب فى العطلة الصيفية إلى مستشفى ميت غمر لأخذ الشربه والحقن ثم تعود الإصابه من جديد باقى السنة وهكذا ترددت على مستشفى ميت غمر مع رفاقى الطلبه أكثر من مرة لهذا الغرض والصورة مازالت ماثله وواضحة إلى الآن فى ذهنى كيف كانت الأعداد الغفيره من المرضى تتزاحم على شباك التذاكر الوحيد بالمستشفى وكيف كان المرضى يتركون فى صفوف طويلة تحت الشمس الحاره حتى يأتى دور كل منهم للوقوف أمام الطبيب وكيف كانت معاملة الممرضين قاسية عليهم إلا إذا نفحوهم بالمال أو الهدايا.

وأمام الطبيب لم يكن هناك وقت للكلام فيكفى أن يفتح المريض فمه بأى كلمه حتى يسرع الطبيب بكتابه شئ ما بتذكرة المريض وبهذا ينتهى الكشف !!

والصراع نفسه عند التحليل... وعند صرف الدواء... وعند أخذ الحقن.

وكانت الظاهرة الواضحه أن الممرضين يعاملون المرضى وكأنهم يجودون عليهم من مالهم الخاص وأما الممرضات والحكيمات فهؤلاء قد وضعوا أنفسهم فى مصاف الكهنه لايقترب منهم إلا المحظوظون.. وأما الأطباء فهم الآلهة.

هذه الصورة مازالت أمام عينى إلى الآن فما إن انتهيت من دراستى الثانوية حتى التحقت بكلية الطب.

وتتابعت دراستى بها وكنت كلما ذهبت إلى البلدة وأنا مازلت طالبا بالجامعة يلجأ إلىّ أهلها وكأننى قد أصبحت طبيبا فعلا.

ما أطيب أهلنا بالريف.

إن رحلة الدكتور الشربينى مع علاج المرضى جعلته يقول:

(آمنت فى النهاية بأنه لن يكون هناك حل كامل ولن تتحقق العدالة الاجتماعية للرعاية الصحية، ولن يكون للطب والأطباء رسالة حقيقية إلا بتأميم الطب فى مصر) .

والآن اختتم بطبيبة

قصة الدكتوره خديجه أحمد نجيب.

كنا نسكن منذ ولادتى بحى عابدين وكان به عيادة الطبيب الباطنى المشهور عبدالعزيز باشا اسماعيل.

ومضت فى القصة وخط عريض فيها الحقيبه الكبيرة السوداء التى كان يحملها الدكتور عبدالعزيز باشا اسماعيل فقد كانت طفله، تتصور أن بها ايراد العياده حتى أنها لم تستثن والدتها من السؤال فى زحمه انهماكها فى أعمال المنزل لتقف منها على كمية النقود التى يمكن أن تسعها مثل هذه الحقيبه.

وتصادف بعد أن كبرت ودخلت كلية الطب أن كان معها فى الدفعة نفسها الطالب أحمد عبدالعزيز اسماعيل ابن الطبيب المشهور.

وتخرجت الدكتوره زينب أحمد نجيب من الكلية سنة ١٩٤٦ وفتحت مع الأيام عيادة... نسمعها بعد السنين تقول:

(طبيعى أنى لست بحاجة لأن أقول أنى أغادر عيادتى يوميا ودخلى منها استطيع أن أضعه فى كيس صغير جدا ولكنى أعلم اليوم أن الطب مهنه إنسانية بحته قبل أن يكون عملا يحقق ربحا لمزاولته).

أقول: بالطبع عرفت جواب سؤالها القديم والملح عن الحقيبه السوداء التى كان يحملها المغفور له الدكتور عبدالعزيز اسماعيل لقد كانت حقيبة آلات طبيه وليست حقيبة نقود.

الكتاب مملوء بالقصص الإنسانية وبالتجارب فلمن يريد المزيد فلا يزال عند الكتاب، الجديد والمفيد.